المحاضرة الثالث

الفصل الثالث
الحديث وطريقة جمعه ، وكتب الصحاح

الحديث في الأصل : الخبر ، أو الرواية الشفهية في موضوع ديني أو دنيوي ، ثم اتخذت الرواية معنى خاصاً في الإسلام ، فصارت تعني أقوال الرسول (ص) . وأما كلمة سنة فتعني : العادة ، أو طريقة التصرف الاعتيادي في الأمور الاجتماعية ، والدينية ، والقانونية . وكانت معروفة عند العرب الجاهليين . وتعني العادة المتبعة عندهم ، فلما جاء الاسلام صارت تعني عادة الرسول (ص) وأصحابه . فالحديث اذن يدل على القول ، والسنة تدل على العمل . وفي البدء ، كان الصحابة خير مصدر للمعلومات عن السنة ، ذلك أنهم سمعوا كلام الرسول (ص) نفسه وشاهدوا أعماله ، وبعد ذلك كان على الناس أن يأخذوا الاخبار من (التابعين) وهم الجيل التالي لعصر النبوة الذين سمعوا الحديث عن الصحابة . وبعد ذلك عن الذين كانوا على صلة بالتابعين ، وهم تابعو التابعين . وهكذا أخذ كل جيل الحديث عن سابقه ، وبقيت الاحاديث على شكل روايات شخصية خلال أجيال عديدة . ان كل حديث كامل يتألف من قسمين : الأول سلسلة رواة الحديث على التوالي ، ويسمى (الإسناد) أو (السند) لانه يثبت صحة الخبر ، وتبدأ السلسلة بآخر رواية وتتدرج إلى الشخص الذي صدر عنه الحديث . والقسم الثاني هو المتن ، أو محتويات الحديث . ويظهر ان العناية بالسنة كانت أولا في المدينة . وكان طبيعياً أن تصبح المدينة ، دار السنة ، ففيها عاش الصحابة الذين سمعوا الرسول (ص) ، وشاهدوا أعماله ، وصاروا خير من يروي أحاديثه ، وأخبار سنته . ولذا كانت المرجع في الحديث والسنة ، حتى بعد تفرق الصحابة في الامصار بعد الفتوح .

لقد حدث الصحابة بعد وفاة الرسول (ص) بأقواله . وحدثوا عن كل شيء مما أخبر به ، أو عمله ، مما يتعلق بشؤون الحياة الفردية ، والاجتماعية ، وفي الامور الخاصة ، والعامة . ورأى المسلمون في السنة مثلاً أعلى ، وحاولوا تفهمها في كل أمور الحياة ، دينية ، أو اجتماعية ، أو ادارية . ولهذا كان من الضروري أن يُعنى البعض بحفظها ، والبعض الآخر بتدوينها . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن عباس ، وأنس بن مالك بين من كانوا يدونون الحديث خوفا من أثر الذهول والنسيان بمرور الزمن . وليس هذا بغريب اذ لاحظنا ان البعض كان منذ العصر الجاهلي يدون الحكم . وكان كثير من الصحابة يصحبون معهم صحفهم ، ويلقون منها على تلامذتهم ، ولذلك فان قسم من الحديث كتب في العصر الأول ولم

يقتصر على الرواية الشفهية وحدها . وقد تمتع الحديث بعد القرآن بتقدير فائق ، حتى صدر الأساس الثاني للفقه ومع ان الاحوال تبدلت بعد وفاة الرسول (ص) ، وتأثر العرب بالانتاج الفكري للأمم الأخرى ، وبأوضاع الحضارات المجاورة لهم ، فقد بقي الناس يعتقدون أنه لا يوجد ما يمكن أن يكون منهاجاً للمؤمنين ، وقدوة لهم غير القرآن وحديث النبي (ص) ، وسنة المجتمع الاسلامي الأول . ووجد من يقول ان حديث الرسول (ص) وحي لا يختلف عن القرآن ، الا أن القرآن موحى بلفظ ومعناه ، والحديث موحى بمعناه فقط . غير أنه لما كان المجتمع الاسلامي يستند في أساسه الى الدين ، وكل حركة أو فكرة يجب أن تستند إلى أصل من أصل الاولين : القرآن والحديث ، ولما كان نص القرآن مجموعاً ومعيناً ، وهذا شيء لم يحصل في الحديث فان الباب بقي مفتوحاً في الحديث لادخال الآراء بواسطه من لهم أغراض خاصة أو عامة . ولهذا نجد أن أئمة الحديث يتفقون على أن أحاديث كثيرة وضعت لأسباب متباينة . ويظهر ان هذا الوضع بدأ في حياة الرسول (ص) خلال الصراع بينه وبين قريش . فان المشركين وضعوا أقوال نسبوها للرسول (ص) ويشير ابن حزم الى وضع أحاديث على لسان الرسول في حياته . كما اننا نسمع عن التشدد في تدقيق الاحاديث في عهد الخليفتين أبي بكر (ر) وعمر (ر) للتوقي من الوضع في الحديث . ولما حصلت الفتنة في عهد عثمان وعهد علي (ر) وانقسم المسلمون ، أخذت فتنة وضع الحديث تنمو بالتدريج حتى استفحل الوضع بعدئذ ووصل حد الخطورة . ولقد لعب الزنادقة ، والملاحدة دوراً مهماً في وضع الحديث لافساد الدين الاسلامي . وكان للانقسامات الحزبية ، والخلافات المذهبية أثر كبير في هذا الوضع . كما وضعت كل أسرة الاحاديث التي تؤيد حكمها ، وتثبت حقها في الخلافة والامامة . كذلك فعلت الفرق المختلفة . على ان هناك بعض الانقياء والزهاد الذين وضعوا الحديث لاغراض دينية ، ترغيباً وترهيباً ، أملاً بحفظ الدين وتقويته . وصرف الناس الى القرآن ، وترقيق أفئدتهم .

ولا شك في ان للتطور الاجتماعي والفكري ، وتسرب الشيء الكثير من الآراء الغريبة الى المسلمين أثره في الحديث الموضوع . وكما ابتلي الحديث بافة الوضع ، فقد نعم بحزم حامليه ، واحتياطهم فيه ، وخوضهم في تنقيته بدقة نظر وامعان ، لا مثيل لهما . حتى قال ابن قتيبة ، ليس لامة سنة ، مثل سنتنا ، ويقول مرغليوث « ليفخر المسلمون كما شاؤا بعلم حديثهم » .

وقد اعتنى الصحابة بالحديث واحتاطوا في روايته وجمعه من عهد النبي (ص) . فأبو بكر (ر) وعمر (ر) لم يكونا يقبلان من الحديث شيئاً الا بالشهادة العادلة . وعلي (ر) كان يستحلف الراوي ، وعثمان (ر) كان يهاب الحديث خيفة الخطأ فيه . وكلما زاد الوضاعون كلما اشتد الحزم ، والاحتياط ، والتشدد عند المحدثين في قبول الرواية . وقد تشدد تابعو التابعين اكثر من أسلافهم حتى ان مالك بن أنس كان اذا

اشـتبه عليه لفظ من الحديث رد الرواية بكاملها . وقد أثر عنه انه كان يرد رواية البله ، ومن عرف عنه الكذب ، أو الانحراف ، أو قلة العلم بموضوع حديثه . وكذلك تشدد معاصـروه . واشـتهر الامام أحمد بن حنبل بغاية الاحتياط ، والتدقيق في الرواية . أما البخاري ومسلم ، فيشهد لهما بدقتهما حذاق المحققين .

وكان للنسـاء دور مهم في الحديث ، فقد اشـتغلن بدرسـه ، وبروايته وبالسـفر من أجله ، وحضـرن دروس المحدثين الاعلام ، وحصـلن على اجازات للتدريس ، حتى نبغ البعض منهن وتفوقن فيه . بدأ بعض الصـحابيات وعلى رأسـهن عائشـة أم المؤمنين ، فقد كان لها حظ وافر في الرواية ، وعدت من المكثرين . وقد برز منهن عدد كبير في العصـور العباسـية . نذكر منهن كريمة بنت أحمد ، وهي من أركان الحديث ، وكان العلماء الأفاضـل يحضـرون دروسـها كالمحدث المؤرخ المعروف بالخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ - ١٠٧١م) ، وقد اعترف العلماء بفضلهـا في تدريس ، الجامع الصـحيح ، للبخاري وكانت من كبار الثقات . ومن شـهيرات المحدثات في القرن الخامس الهجري فاطمة بنت حسن بن علي الدقاق الصوفي المشهور (٤٨٠هـ) - قرينة أشهر الصوفيين أبي القاسم القشيري - فقد سافرت الى مراكز العلم الشهيرة ، ودرسـت على فطاحل المحدثين ، وضـربت بسـهم وافر في العلوم الاسـلامية حتى صارت تعد من أشهر المحدثات والمحدثين ومن أوثقهم .

وقد اجتهد المحدثون والعلماء كثيراً في جمع الحديث ، والسـنة ، لتوضـيح حياة الرسـول (ص) ، وسـنته ، ولنشـرها بين الناس ، وقاموا برحلات كثيرة بين أواسـط آسـية ، والأندلس ، يتنقلون من بلدة الى بلدة ومن بقعة الى أخرى لا غرض لهم الا سماع الحديث ، أو الاصـغاء الى المحدثين . بدأت هذه الرحلات من عصر الصـحابة ، وزادت قوة على مر الأيام .

فجابر بن عبدالله سافر على راحلته مسافة شهر ليسمع رواية من محدث . ورحل الى بيت المقدس ليسـمع حديثاً من أبي الدرداء . ومكحول تجشـم السـفر بين مصـر ، والشام ، والعراق ، والحجاز لسماع الحديث . وسعيد بن المسيب كان يواصل الاسفار بالليل والنهار لسـماع حديث . وكان الواحد منهم يأخذ حديثه عن مئات الشـيوخ . وقد أطال بعضهم تلمذته على الشيوخ المشهورين . فالزهري لازم سعيد بن المسيب عشر سـنين ، وربيع بن أنس لازم الحسـن البصـري عشـر سـنين . وقضـى ابن جريج مع عطاء بن كيسـان ثمانية عشـر عاما . وثابت بن أسـلم حضـر دروس مالك ابن أنس أربعين سـنة . وبذلوا في طلبهم للحديث كل غال وثمين . فالزهري أنفق ما عنده في طلب الحديث ، وكان عمله يلهيه عن أهله ، حتى ان زوجته قالت : "والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر" وأنفق ابن المبارك في طلب الحديث أربعين ألف درهم . وأنفق يحيى بن معين مليون وخمسـين ألف درهم ، حتى لم يبق له ما يشـتري به نعلاً فكان يمشي حافياً .

أما عدد طلبة الحديث فكان كبيراً ، حتى ليظن القاريء أن ما يذكر من أرقام أقرب الى الاسطورة منه الى الحقيقة . فمثلا بلغ عدد تلامذة الحديث في الكوفة في زمن ابن سيرين أربعة آلاف . وكان مسجد المدينة يضيق بالطلبة الذين يحضرون دروس مالك بن أنس . وكان يحضر دروس الحديث التي يلقيها علي بن عاصم ثلاثون ألف طالب .

ولقد كانت أهمية الرحلة في طلب العلم بالغة بالنسبة للمسلمين ، اذ كان يستحيل جمع الحديث بدون هذه الرحلات ، كما انها ساعدت على نشر الحديث في انحاء العالم الاسلامي . وينبني أن تذكر ان مادة الحديث قد أصابها شيء من التنظيم في جمعها وتدوينها للعوامل الآتية :

١- اهتمام المسلمين بالحديث لتنظيم الحياة في مختلف نواحيها .

٢ - كثرة الحديث نتيجة للجهود التي بذلها المحدثون لاستقصاء أحاديث الرسول (ص) .

٣- عناية العباسيين بالسنة تركت أثراً واضحاً في تنشيط الحركة التي كانت ترمي الى جمع الحديث وتدوينه .

٤- وهناك عامل آخر أثر بصورة مباشرة على تنظيم مادة الحديث وتدوينها . وهو ظهور مدرستين في الفقه ، الأولى : ومركزها العراق . وزعيمها أبو حنيفة . وكانت لا تتردد في استعمال الرأي لحل كثير من المشاكل . وهي ترجع قليلاً إلى الحديث للاستشهاد به في الاحكام . ومدرسة أخرى هي مدرسة أهل الحديث ، ومركزها الأول : المدينة ، وأصحابها يتمسكون بالحديث ، ويعتمدون عليه في كل مشكلة فقهية ، ولا يرجعون الى الرأي الا نادراً وفي أحوال قاهرة . وقد حرص هؤلاء على البحث عن الحديث ، وجمعه وتطبيقه على كل مسألة ، وفضلوه على اللجوء الى الرأي . وقد توسع نفوذ أهل الحديث ، حتى ان بعض أهل الرأي كمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة ، رجعوا إلى الحديث ليؤيدوا مذهبهم . وصار لأهل الحديث مدرسة قوية في العراق ، اضطهدت من خلافة المأمون الى خلافة الواثق ، ولكنها ثبتت أمام المحن ، في شخص امامها أحمد بن حنبل سنة (٢٤٠هـ - ٢٨٥٥) ، ثم صارت لها السيادة منذ تولى المتوكل الخلافة .

وقد ألف عدد من العلماء مجموعات عديدة للحديث : رتبت محتوياتها على وفق أسماء الصحابة الذين تسند اليهم ، بصرف النظر عن موضوع الحديث منها : مسند أحمد بن حنبل ، الذي يحوي نحو ٣٠,٠٠٠ حديث مأخوذ عن نحو ٧٠٠ صحابي ، ويحتوي هذا المسند على أحاديث كثيرة لا توجد في غيره . وقد ركز مؤلفه الجد على نقد الاسناد .

ومما يسترعي الانتباه في هذا المسند جرأة مؤلفه ، حيث يذكر أحاديث في جانب بني أمية وأخرى في جانب الشيعة ، دون أن يخشى السلطان العباسي . وقد صنفت

الاحاديث أيضاً بحسب مواضيعها ، ورتبت المواضيع بحسب ترتيبها في كتب الفقه . وتدعى هذه المجموعات بـــ (المصنفات) . ولقد وثق المسلمون بمرور الزمن بستة مصـــنفات ، واعترفوا لها بمنزلة خاصـــة ، وكلها ظهرت في حدود القرن الثالث الهجري ، واليك أسماء مؤلفيها :

(١) البخاري (٢٥٦هـ - ٨٧٠ م) . (٢) مسلم (٢٦١هـ - ٨٧٥م) .

(٣) أبو داود (٢٧٥هـ - ٨٨٨م) . (٤) الترمذي (٢٧٩هـ - ٨٩٢م) .

(٥) ابن ماجة (٢٧٤هـ - ٨٨٦م) . (٦) النسائي (٣٠٣ هـ - ٩١٥م) .

ولمصنفي البخاري ومسلم منزلة خاصة ممتازة ، ويعرفان بـــ (الصحيحين) أما المؤلفات الاربعة الاخرى فتعرف بـ (كتب السنن) . كما يعرف كتاب الترمذي بجامع الترمذي . ونظرا لما لهذه المصـــنفات من أهمية فقد أطلق عليها المســـلمون (الكتب الستة) أو (الصـحاح الستة) . ولم يدخل في الصـحيحين الا الاحاديث التي اعتبرت صحيحة تماماً .

وقد وجدت مجموعات أخرى في القرن الثالث مثل ســـنن أبي عبدالله الدارمي (٢٥٥هـــ - ٨٦٨م) ولكن هذه المجموعات لم تحصـل على الشـهرة التي تمتعت بها الصـحاح الستة . كما ان أهمية الصـحاح الستة لم تثبت الا تدريجياً خاصـة سنن ابن ماجة التي انتقدت مدة طويلة لاحتوائها على احاديث ضـعيفة . كما ان كتبت الصـحاح الستة ، على شهرتها ، لم تسلم من النقد ، فقد ألف الدارقطني (٣٨٥هـ - ٩٩٥م) كتابا أظهر فيه ضعف مئتي حديث موجودة في الصحيحين .

ومهما يكن من أمر فقد وثقت الصحاح الستة باجماع الأمة الاسلامية . ولقد وضع المسلمون قواعد خاصـة لرواية الحديث ، وشروطاً لقبول الاحاديث ، فقد نقدوا اسناد الحديث ولاحظوا متنه ، الا انهم ركزوا جهدهم على الرواة الموثوقين . الاسـناد . فلا يمكن الوثوق بالحديث الا أن يكون اسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوقين .

والظاهر ان بدء استعمال الاسناد كان في حدود منتصف القرن الأول الهجري . وقد أصـــاب الاســـناد تحرٍ وبحث قام بهما علماء الحديث . فقد عنوا بمعرفة أماكن الرواة ، وزمن معيشـتهم ، وصـلتهم بمن نقلوا الحديث عنهم وسـلامة ايمانهم ، وحبهم للحقيقـة ، ودرجـة تدقيقهم في نقل الاخبـار وهذا النقد الرواة الحـديث يعرف بعلم (الجرح والتعديل) .

وصـار من الضـروري لعلماء الحديث معرفة (رواة الحديث) ، وظهرت مؤلفات خاصـة بهذا الموضـوع ، ككتب الطبقات ، ومنها ، : طبقات ابن سـعد (٢٣٠هـــ - ٨٤٤م) ، وطبقات الحفاظ للذهبي (٧٤٨هـ - ١٣٤٧م) ٠٠٠ الخ .

واهتموا كذلك بالمتن ، كأسـاس مهم في النقد . فان معنى المتن ، واتجاهه كانا في كثير من الاحيان سبب اثارة الشك في الاسناد ، ويظهر انه بعد أن استقرت الآراء في العقائد ، وعرفت قيمة أكثر الرواة ، ورواياتهم في القرنين الثاني والثالث الهجريين

اتجه الاهتمام الى المتن ، وخصوصاً الى تلك الاحاديث التي تتعلق بموضوع واحد ، والتي يظهر فيها التناقض ، فوقف نقاد الحديث أحد موقفين : اما نبذ الحديث ، ان ناقض الآراء السائدة في الامة ، أو التوفيق بين الحديثين المتناقضين في الظاهر . ومن أمثلة الاتجاه الثاني "كتاب تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة (٢٦٦هـ - ٨٨٩م) . ولم يكن للاحاديث قيمة واحدة عند علماء الحديث ، بل قسمت الى درجات ، لكل منها صفات معينة ، تعتمد على جودة الاسناد ، والثقة التي ينالها رجاله . ويميز المحدثون ثلاثة أصناف من الحديث :

(١) الصحيح : وهو الحديث المسند الذي لا يوجد في اسناده علة ولا يوجد في متنه فكرة تناقض المقبول .

(٢) الحسن : وهو حديث « لا يخلوا رجال اسناده من مستور لم تتحقق أهليته غير انه ليس مغفلاً كثير الخطأ فيما يرويه ولا هو متهم بالكذب في الحديث . ويكون متن الحديث قد عرف بأنه روي مثله أو نحوه » أو « أن يكون راويته من المشهورين بالصدق والأمانة غير أنه لم يبلغ درجة رجال الصحيح لكونه يقصر عنهم في الحفظ والاتقان » .

(٣) الضعيف : كل حديث يوجد اعتراض قوي عليه ، سواء أكان ذلك بخصوص منه ، أم حين يوجد بين رواته من لا يوثق بهم أو لا يطمأن الى عقيدتهم .

ويصنف الحديث الى أصناف بحسب سلاسل الرواة ، منها :-

١- **(المتواتر)** وهو حديث يرويه ناس لا يحصى عددهم ، ولا يمكن اتفاقهم على كذب لكثرتهم ، وعدالتهم ، وتفرق مساكنهم .

٢- **(المعروف)** ويأتي عن ثلاثة رواة ثقات على الاقل ، أو على رأي آخر هو ما جاء عن صحابي واحد وانتشر في عصر التابعين فرواه كثيرون منهم .

٣- **(العزيز)** ويأتي من اثنين من الرواة أو ثلاثة ولم يصل شهرة الصفين السابقين .

٤- **(الغريب)** وهو الحديث الذي ينفرد به بعض الرواة .

أما رواية الحديث فقد أكد المحدثون الرواية الشفهية حذراً من الخطأ الكتابي . ويكون تعليم الحديث شفهياً عن الاستاذ . واذا كتب شيء فلأجل أن يعين الذاكرة . وهكذا يظهر لنا ان الحديث لعب دوراً حاسماً في الفكر الاسلامي ، وكان الدعامة الثانية بعد القرآن لاقامة صرح التشريع الاسلامي ، كما ناله الشيء الكثير من التدقيق العظيم في رواياته ، وفي مصطلحه وفي تدوينه .